Arab Reform Initiative
مبادرة الإصلاح العربي

أوراق المتابعة السياسية

55

شباط/ فبراير

2012

أوراق المتابعة السياسية هي تحليلات ورؤى لباحثين ونشطاء عرب تصدر بشكل دوري كل شهر وتتناول قضايا الإصلاح المختلفة في الأطر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والقانونية.

"الكتلة الصامتة": رعاية الاستبداد خوفا أو طوعا..

غسان المفلح*

في الشهر الثالث من عمر الثورة السورية، وفي رده على سؤال حول الكتلة الصامتة، يقول المفكر السوري برهان غليون: "أعتقد بالفعل أن هناك مجموعة من الشعب السوري ما زالت صامتة وهي مجموعة مهمة وليست بالقليلة. أحد الأسباب الرئيسية وراء هذا الصمت هو قلقهم من تبعات ذلك على الإستقرار. وهنا نتحدث عن رجال الأعمال والمهن والصناعيين والإقتصاديين. حياة هؤلاء تتطلب الإستقرار ويعتقدون أن نظام الأسد يؤمن لهم هذا الاستقرار". كما يعرّفهم الصحفي السوري غسان الإمام بأنهم "كتلة بشرية خامدة محافظة متمسكة بالتقاليد وكنيسة الأحد ومسجد الجمعة. كتلة مرتاحة مادياً، همها استقرار هذا الوضع، الأمني والآمن". ويصرح الناشط اليمني خالد مكرد المقطري بأن "عملية تصعيد الثورة عن طريق حشد الكتل الصامتة، وتعريفها بأن هذه ثورة وليست أزمة بين أحزاب اللقاء المشترك (المعارضة) والمؤتمر (السلطة)، وإنما هي ثورة تقتلع الفاسدين ، ثورة الشعب بأكمله".

هذا القول للناشط اليمني لا يفسّر الوضع في سوريا كما هو، فمن المعروف أن الوضع اليمني أتاح بعض الهوامش النسبية، وكان للمعارضة تواجدها العلني والإعلامي وحضورها في البرلمان. والخوف في الوضع اليمني لم يكن له حضورا كبيرا لدى شعب اليمن. وبالتالي، يمكن الحديث عن كتلة صامتة تترقب من سينتصر من هذه الكوكبة السياسية التي لاتشعر أنها تنتمي إليها بعدما جربتها في السابق كما هو لسان حالها، وكما يشير المقطري في تعليقه. ويتساءل الناشط البحريني حسن مدن: "هل خطاب القوى الناشطة مازال عاجزاً عن استقطاب بعض هذه الشرائح؟ وهل لا تجد هذه الشرائح ما يستهويها في هذا الخطاب، سواء كان خطاب قوى الإسلام السياسي على تلاوينه أو الخطاب العلماني على تلاوينه أيضاً؟ هل تجد هذه الشرائح الصامتة أن الخطابين، على تلاوينهما، قاصرين أو عاجزين عن تلبية تطلعاتها وتصوراتها لمستقبل البلاد ؟ أم أن هذه الشرائح وَجِلة تجاه المستقبل، مأخوذة بذكريات الماضي غير البعيد المريرة، وبالتالي فان إحدى روافع الدفع بهذه الشرائح نحو المزيد من الايجابية هو في خطوات تسريع الإصلاحات وتعميقها، بحيث انه كلما لمست نتائج ذلك على الأرض كلما تعمقت ثقتها في جدية ما نحن بصدده من تحولات؟".

***صحفي سوري.**

وكما هو معروف أيضا بأن التجربة المصرية في ثورتها،عرفت ما يسمى بحزب الكنبة تعبيرا عمن بقوا صامتين يتابعون الأحداث من بيوتهم. لكن ببساطة يمكننا القول ان قصر فترة الثورة المصرية جعل الحديث عن هذه الكتلة نافلا وخاصة بعدما جرت انتخابات نيابية، حصد من خلالها الإسلاميون أكثرية واضحة وحيث كان جزء كبير منهم من المحسوبين على حزب الكنبة هذا. إذاً بقيت المشكلة مع هذه الكتلة هي مشكلة انتخابية كما كتب أحد الناشطين الشباب في مدونته قبيل الانتخابات المصرية قائلاً بأن "هؤلاء هم الكتلة الصامتة، ليسوا بالضرورة ثابتين على موقف محدد طوال الوقت مع أو ضد الثورة ومع أو ضد الأخوان أو الليبراليين، لكنهم بالضرورة يريدون مصر وطناً أفضل لهم ولأبنائهم، هم بالضرورة يخافون على مصر حتى ولو لعنوها أحيانا، هم بالضرورة مواطنين كاملي الأهلية والحقوق". وقد تمت إثارة مسألة كيف يمكن جعل هذه الكتلة تشارك في الانتخابات وما هو دور القوى السياسية في ذلك. تماماً كما كان الوضع عليه في تونس أيضا قبل الانتخابات التي جرت وفاز فيها حزب النهضة الإسلامي.

لقد أردت بإيراد هذه الشواهد من الناشطين في البلدان العربية التي حدثت فيها ثورات وانتفاضات واحتجاجات، أن أصل لنتيجة أنه لايوجد في الحقيقة مشكلة كتلة صامتة أثيرت بهذا الشكل الذي أثيرت به إلا في الثورة السورية. فبعد دخول الثورة السورية شهرها الثاني عشر عشر يلاحظ المرء أن معظم شعارات الانتفاضة وهتافاتها، مع بعض الاستثناءات هنا وهناك، تدور حول قضايا الحرية والكرامة والديمقراطية والدولة المدنية ووحدة الشعب ونبذ الطائفية والعنف، وهو ما يفسر تأييد أكثرية القوى والشخصيات اليسارية والعلمانية لهذا الثورة. الحقيقة كما نزعم هي أن ارتفاع كلفة المشاركة بالثورة، من قتل أو اعتقال أو قطع الأرزاق، هي التي تشكل أساس العوامل التي نستند إليها في تفسير بعض جوانب المشكلة في سورية. إن الصمت خوفا من النظام القائم هو أكبر بكثير من الخوف من المستقبل.

"الكتلة الصامتة" في سورية، هل هذا المصطلح صحيح؟

الخوف من القمع سمة إنسانية عامة، والخوف من المستقبل في ظل هذا القمع الذي ولد حالة نكوص تقوقعي على الذات عند بعض القطاعات الشعبية، هو سمة خاصة بكل قمع سلطوي عربي على حدة. هذا الخوف من القمع في سورية أزالته الثورة من تحت طبقات تلك القوقعة بعد كسرها، والتي كانت تميل إلى عدم التدخل في الشأن السياسي العام والوطني الخاص. أعتقد أن هنالك حالة التوائية في سورية ساهم فيها النظام وإعلامه وبعض مثقفينا من جهة، كما ساهم فيها الإعلام الدولي الداعم للنظام أو الذي يدعم الثورة بحدود عدم التدخل الدولي. وحجتهم في ذلك هو وجود هذه الكتلة الصامتة، أو ما سميت بشكل غير دقيق بالكتلة الصامتة.

مع ذلك، يمكننا الحديث في الأشهر الأولى من عمر الثورة عن كتلة صامتة، وقبل هذا المستوى من العنف الذي وصل إلى أكثر من 6500 شهيد وعشرات الألوف من المعتقلين وألوف من الجرحى والمصابين، إضافة إلى حصار المدن وتقطيعها بالشبيحة والمخابرات والجيش الذي استخدم أبشع ما عنده من أجل قمع هذه الثورة. أما الآن فالحديث عن وجود كتلة صامتة هو خدمة لمعركة القمع ضد الثورة، وتضليلا للبحث الموضوعي في وضع الثورة ولوحة قواها الداخلية، وتمويها للقوى الداعمة للنظام.

الآن وبعد مرور أقل من عام على الثورة، يمكننا وبوضوح أن نطلق بشكل تجريبي على هذه الكتلة أسم "الكتلة غير المتحركة مع الثورة" وسأكثف فرضيتي بالتالي:

هنالك كتلة فعالياتها ذات حضور، حذرة تجاه الأكثرية السنية، وهي تضم شريحة واسعة من الأقليات الدينية، وهذا الحذر له أسبابه وهي:

1- أجواء الحرب على الإرهاب ما بعد 11 أيلول / سبتمبر 2001 وما خلفته من ثقافة معادية للإسلام عموما، وبات لها مرتكزات لدى غالبية الأقليات في الشرق الأوسط، بمعزل عن موضوعية أو عدم موضوعية ما يمكننا تسميته بالآثار الجانبية لما سمي في الغرب "بالإسلاموفوبيا". وهذه الثقافة، لم يتحرك المتأثرون بها لأن مصالحهم أيضا ارتبطت باستمرار هذا العداء على قاعدة الترابط مع مصالح السلطة. هذه الكتلة التي لم تتحرك ليس بسبب الخوف فقط، فبعد مضي قرابة العام على القتل اليومي، يُخشى أنها تقف مع الاستبداد طوعاً. لهذا لا يصح تسميتها كتلة صامتة. وهي متحركة وفي كثير من المناسبات كانت ولاتزال تشكل تلك الشريحة الاوسع التي تخرج مهلله ومقيمة الأعراس دعما للنظام.

2- الثقافة التخويفية التي كرسها النظام لدى شريحة من الطائفة العلوية بحجة ان هذه السلطة سلطتهم وعليهم الدفاع عنها ضد السنة. وهذا الأمر يرتبط أيضا بالوضع التمييزي التفضيلي الذي مورس لصالحهم في مؤسسات الجيش والأمن والدولة، مما شكل ارتباط مصالح بين قطاع من هذه الشريحة وبين استمرار النظام على خلفية تلك

الثقافة. وأيضا هذه الكتلة ليست صامتة، بغض النظر عن وضعها الطبقي أو غير الطبقي، الذي كان يصح كما قلنا في البدايات فقط. وسنبقي على استخدام متحفظ لهذا المصطلح "الكتلة الصامتة" إلى حين اشتقاق مصطلح أكثر موائمة مع الحالة.

هناك ميل لدى البعض إلى اعتبار أن الثورة يغلب عليها الطابع الإسلامي مما يشجع تقوقع الفئات الأخرى من المجتمع وابتعادها عن المساهمة في العملية الاحتجاجية. وللرد على هذه الفرضية، نستعرض مستوى الاحتجاجات والتظاهرات في المحافظات مرتبة حسب عدد السكان (نسبة مئوية بالنسبة لإجمالي عدد السكان):

1- محافظة حلب 22,64 % خرج بعض أحياءها وخرج طلاب جامعتها منذ بداية الاحتجاجات. قدمت 12 شهيداً في جمعة الدفاع عن النفس في 27 كانون الثاني / يناير 2012. وقد شاركت بعض أسواقها بالإضراب العام، ومعظم ريفها العربي والكردي رغم محاولة حزب العمال الكردستاني قمعها في مناطق سيطرته في مدينة عفرين والأحياء الكردية في حلب مثل الشيخ مقصود والأشرفية والسريان القديم، وتحت سمع ودعم النظام السوري. ويمكن إرجاع الهدوء النسبي الذي كان مسجلاً في مدينة حلب للعديد من العوامل نعتقد أن أهمها :

- الدور التركي من خلال علاقة تركيا بطبقة التجار وبعض الفعاليات. والأتراك في هذه المرحلة من الثورة، لا يريدون ربما لحلب أن تتحرك في هذه الفترة بالذات، لأسباب اقتصادية وتوازنات جيوسياسية معقدة.

- قادة حلب الدينيين والمعينون من قبل السلطة تم استقطابهم وتتبيعهم منذ الثمانينيات، فتجربة النظام مع مدينة حلب في تلك الفترة وصراعه مع الإخوان المسلمين جعلته يعيد تكوين القادة الدينيين للمدينة في إطار تحفيز المتعممين الرسميين لشغل الساحة الدينية والدعوية.

- تواجد المكونات الإثنية والدينية المعقدة في سلطة المدينة والتي لدى بعض قياداتها الرمزية والاقتصادية ارتباطات ومصالح وعلاقات وثيقة مع النظام. هؤلاء القادة ليسوا صامتين حفاظا على الاستقرار بل دعماً لاستمرار النظام.

- إضافة إلى ذلك؛ الحملة الأمنية الكبيرة في حلب؛ حيث تم بناء منظومة قمعية من "الشبيحة" من قبل بعض مدعي المشيخة القبلية والمهربين يقوم بتمويلهم بعض رجال الأعمال لحماية مصالحهم مع السلطة أو خوفاً من انتقامها. وتدعمهم السلطة بالأسلحة.

- طبقة التجار التي تعتمد على السوق الداخلية السورية عموما والحلبية خصوصا، التي دخلت بشراكات حقيقية مع رموز النظام ودائرته المقربة، وفي موقفهم عموما حالة من الانتهازية المصلحية.

- حالة الخوف التي كرستها شدة القمع التي تعرضت لها مدينة حلب إبان أحداث الثمانينيات، ولا تزال آثارها جاثمة ولم تتخلص منها. والتي دفعت ثمنها تهميشاً سياسياً وخدمياً خلال العقود التي تلت.

- المعارضة المتواجدة في مدينة حلب، كحزب الاتحاد الاشتراكي. ووفقا لمعطياتي، لم تدعو للتظاهر، واليسار فيها ضعيف جدا كغالبية المحافظات حيث أدت سيطرة القيادات المستقطبة من قبل النظام إلى إيقاع القطيعة بين النخب والشارع..

ومن جهة أخرى، فقد أوضحت الحالة الحلبية بأن الإسلام السني في سورية لايوجد لديه مرجعية دينية واحدة ذات بعد تمثيلي. وبالمقابل، لا يوجد لهذا الإسلام السني، ولن يوجد، تمثيلا سياسيا واحدا أيضا. وتجدر الملاحظة هنا قوة حضور ما يسمى بالتيار الحلبي داخل جماعة الإخوان المسلمين السورية، من خلال أهمية تواجده داخل صفوف المعارضة، وخاصة المجلس الوطني السوري، حيث يعتبر هذا التيار أحد الجهات المؤسسة للمجلس.

2- محافظة ريف دمشق 12,82 %، خرج كل ريفها ماعدا النبك وصيدنايا ودير عطية.

3- محافظة مدينة دمشق 8,6 %، خرجت أحياء الميدان وركن الدين منذ بدء الثورة ولا تزال تخرج. وفيها أيضا كتلة لا تزال خائفة، وكتلة أخرى متواطئة مع النظام منهم رجال دين كمحمد سعيد رمضان البوطي وغيره، وهم مقربّون من أصحاب الأموال حديثي الثراء، وبعض التجار التقليديين الذين تلاقت مصالحهم مع النظام عبر شبكات عدة، إضافة إلى تواجد شرائح سكانية تشكل قاعدة للنظام ومرتبطة بآلياته وبمؤسساته بشكل معقد. بالمقابل، من المهم الإشارة إلى نقطة أخرى تتعلق بموقف المدينة وريفها، وخاصة دوما وحرستا وسقبا وعربين وجوبر وكفربطنا ومعربا والتل ومنين وبرزة والقابون وقطنا..الخ، والتي لا تتوقف عن التظاهر والاحتجاج. فهنالك شريحة واسعة من سكان دمشق، باعوا منازلهم نتيجة الارتفاع الهائل للأسعار الذي ساهمت فيه المضاربات العقارية للمقربين من النظام. وقام الكثيرون إذا منهم بالانتقال للعيش في الضواحي.

4- محافظة حمص 8,49 %، عاصمة الثورة. خرجت معظمها ماعدا بعض المناطق الريفية بسبب التركيبة الدينية والترهيب الممارس من قبل السلطات ودفع البعض للاعتقاد بأنها هي الحامي الوحيد للأقليات على العلم بأنهم يعانون كما غيرهم من السوريين من انعدام الحريات ومن الفساد المرسّخ. وتجدر الإشارة إلى أن أحداث الثورة في حمص قد أبرزت ناشطين من كل الطوائف والاديان عبروا عن تمسكهم بالثورة وبالتلاحم بين مختلف مكونات الشعب السوري.

5- محافظة حماة 7,68 %، خرجت غالبيتها أيضا ماعدا بعض مناطقها الريفية كما في حمص.

6- محافظة الحسكة 7,1 %، خرجت غالبيتها بمدنها وريفها، بمسيحييها ومسلميها، بعربها وكردها وآشورييها. ولم تستطع كل وسائل النظام وأزلامه من كل الفئات أن تؤثر على تلاحم هذا النسيج المبني على الاحساس المواطني في هذه المحافظة. وكذلك، على الرغم من محاولة حزب العمال الكوردستاني شق هذا النسيج من خلال السعي إلى تأجيج الشعور القومي للكورد بشكل عدائي لأقرانهم من مواطني الحسكة. وكذلك، على الرغم من دعم النظام لتشكيل ما سمي بمجلس الشعب الكردي الذي تم تعيين أعضاءه من قبل القيادة التركية لحزب العمال الكردستاني لتفتيت الساحة الكردية، ولكنه فشل في الجزيرة ونجح نسبيا في المناطق المتواجد فيها أصلا مثل عفرين وقراها وبعض أحياء حلب كما أشرت أعلاه.

7- محافظة إدلب 7 %، خرجت كلها بمدنها وريفها.

8- محافظة دير الزور 5,64 %، خرجت كلها بمدنها وريفها.

9- محافظة اللاذقية 4,86 %، مدينة اللاذقية شهدت أكبر تظاهرات وتعرضت أيضا لأقسى حملة قمع، ولاعتبارات أن السلطة تعتبرها عاصمة للأرياف المحيطة بها والتي تحاول السلطات أن تعزلها وتشعرها بأنها مستهدفة. وكذلك تحركت جبلة أكبر مدنها وقام النظام بمجازر فيها. ولاتزالا مدينتي اللاذقية وجبلة مقطعتي الأوصال.

10- محافظة درعا 4,72 %، درعا خرجت كلها، والكتلة الخائفة حضورها لا يكاد يذكر. وهناك انتشار مكثف لقوى الجيش والأمن والشبيحة في كل قرى منطقة حوران ومدنها ذات الانتماءات الدينية المختلفة.

11- محافظة الرقة 4,4 %، كان خروج ريفها في بداية الثورة قويا نسبيا أما مدينتها فكان تفاعلها ضعيفا مقارنة ببقية المحافظات والمدن في الجزيرة السورية، رغم خروج مدينة الطبقة ثاني أكبر مدينة في المحافظة، ومع ذلك عادت وخرجت مدينة الرقة في أكثر من يوم جمعة.

12- محافظة طرطوس 3,86 %، المدينة خرجت في بداية الثورة وقمعت بشدة، ودون أن ننسى بانياس أهم مدينة في هذه المحافظة وما حصل فيها. ريف طرطوس تميّز بقرية البيضا ومظاهراتها. فلا يجوز أن نحسبها على" الكتلة الصامتة".

13- محافظة السويداء 1,78 %، خرجت منطقة شهبا إضافة إلى كوكبة من الناشطين في مختلف أنحاء المحافظة، وقدموا شهداء ومعتقلين. وهناك محاولة من قبل مشايخ عقل الطائفة الدرزية لحماية مصالحهم المرتبطة مع السلطة التي عينتهم للسيطرة على الاحتجاجات وطرد الشباب المحتجين إلى خارج المحافظة، إضافة لتدخلات السياسيين اللبنانيين طلال أرسلان ووئام وهاب اللذان زارا السويداء من أجل هذه الغاية، في حين لم يسمح لوليد جنبلاط بزيارتها خاصة بعد أن انحاز لجانب الثورة السورية نسبياً. في الشهر الأخير بدأت تخرج عديد من القرى في التظاهرات لتعبر عن دعمها لأهل درعا.

14- محافظة القنيطرة 0,41 %، غالبية سكانها خرجوا في التظاهرات، بما فيها الجولان السوري المحتل، وهم موزعون منذ عام 1967 على أحياء دمشق كالحجر الأسود وضواحيها كالسيدة زينب.

أعتقد بحسبة بسيطة وموضوعية، لوجدنا أن الثورة غطت أكثرية سكان سورية وطوائفها وأديانها وإثنياتها.

ملاحظات بسيطة أختم بها: هل يمكن اعتبار المدن والبلدات التي خرجت للتظاهرات عدة مرات ونكل بها ولم تعد تخرج، كطرطوس مثلا أو الرقة أو بعض أحياء حلب، أنها كتلة صامتة؟ أعتقد ان هذا تجني أيضا على البحث الموضوعي. مع ذلك، هذا لا يمنع من وجود بقايا كتلة صامتة هامشية ومحدودة العدد، وخاصة في مدينة حلب لاسباب تتعلق بمدينة حلب ذاتها، وربما كان الخوف أحد أسبابها، وهذا ما حاولنا تبيانه أعلاه. مع ذلك خرجت عن هذه الكتلة ما يمكننا تسميته جيوب وطنية داعمة للثورة، عدا عن ألوف الناشطين من المكون المسيحي، إلا أننا شاهدنا في كثير من المناطق افلاتا كبيرا من سيطرة فعاليات النظام على هذا المكون، كحركة الشبيبة الارثوذكسية بالزبداني، وبعضا من كنائس حوران وحمص.

ثمة أمر آخر وهو قول بعض إعلاميي النظام في لبنان وسورية، وبعض باحثي الغرب أن الثورة وجماهيرها تركزت في المناطق السنية، وخرجت من الجوامع. أن تخرج من الجوامع هذا أمر يعرف سببه ودواعيه كل مطلع على الشأن السوري، حيث أن الجامع هو المكان

الوحيد الذي يتاح فيه الاجتماع في ظل السلطة القائمة والقوانين الجائرة المعمول بها دون أن تمنع. أما لماذا في المناطق السنية، فهي أولا لأسباب موضوعية لأن أكثر من 75% من سكان سورية هم من السنّة، والضرر الذي حدث جراء النهب والفساد والسرقة في النظام وتحطيم الطبقات الوسطى أصابهم مباشرة. ورغم كل هذا، أبدت هذه الكتلة الثائرة إحساسا مواطنياً عالياً وانتماء متجذّراً لسورية بكافة مكوناتها. يقول الناشط سامي حسن في صفحته على الفيسبوك" أما تركز الحراك في مناطق بعينها، أكثر من غيرها، فما هو إلا نتيجة لتباين سياسات النظام وأساليبه، لا سيما الأمنية منها، بين منطقة وأخرى. طبعاً، لا يمكننا نفي، ما لدى البعض من هواجس ومخاوف، ذات صلة بهوية الحراك وما ستؤول إليه الأوضاع في حال تغير النظام. الأمر الذي يغذيه النظام وبعض الممارسات الخاطئة، هنا وهناك، من أطراف محسوبة على الحراك. لكن ذلك ربما يكون مجرد ذريعة لتبرير موقفهم السلبي من الحراك؟

يقول الباحث السوري علي العبد الله: "توالت متغيرات الثورة تزيح قيماً نبتت في سورية في ظل الاستبداد والقهر وتزرع قيماً بديلة لها نكهة جديدة، نكهة الحرية الآتية على جناح الثورة حيث لم يشعر الثوار بالدهشة أو الغرابة عندما اختار المصوتون اسم «آزادي» (كلمة كردية معناها بالعربية الحرية) لجمعة من جمعهم المجيدة". بل إن لافتات رفعت في مدينة حمص التي ليس فيها مواطنون كرد كثيرون، كتبت باللغة الكردية. كما صدحت حناجر الكرد في تظاهراتهم العارمة بدعوات الحرية وإسقاط النظام باللغتين الكردية والعربية. ورفعت لافتات كتبت بالكردية والعربية والسريانية. لقد أسقط الشعب الاضطهاد القومي والإقصاء السياسي الذي مارسه النظام على الكرد والأشوريين - السريان بلفتة ذكية ومباشرة وأعاد إلى سورية رونقها ونكاتها التي افتقدتها طوال عقود الاستبداد والقمع".

في الشهر الثاني عشر من عمر الثورة- الثورة تزاداد اتساعا والقمع والقتل يزداد شراسة ومع ذلك سجلت الجمع الأخيرة 500 نقطة تظاهر زيادة بأكثر من 25% عن السابق والشهداء في ازدياد، رغم وجود المراقبين العرب. أين هي" الكتلة الصامتة" التي يتحدثون عنها.